وجهة الأدب في العراق

بقلم سليم طه التكريتي

ظهرت الحركة الأدبية في العراق بشيء من القوة والسعة في اعقاب الحرب العالمية الأولى كامتداد لحركة البعث العربي التي بدأت بمصر في فجر نهضتها الحديثة وسرت منها الى اقطار عربية اخرى ، كان من بينها العراق الذي جاءت النهضة فيه متأخرة، لعوامل عدة ليس مجال شرحها الآن — عن بقية البلدان العربية الواقعة على سواحل البحر المتوسط .

ولقد كانت الحركة الأدبية في العراق تتوسم عند بداية ظهورها الطراز القديم، سواء كان ذلك في معالجة القريض او مزاولة النثر ، حيث لم يخرج هذا او ذاك عن نطاق المواضيع التي كانت تغلب عليها سمة المحاكاة باسلوب لا يختلف عن الاسلوب القديم إلا قليلاً .

على انه ما ان قصرت المسافات بين اطراف المعمورة بتوسع استخدام وسائل النقل العصرية بعد الحرب الاولى ، حتى اخذ العراق يتلقف المزيد من النتاج الفكري في مصر ولبنان، ذلك النتاج الذي كان في ذاك العهد يمثل طورين من أطوار الفكر او مدرستين فكريتين : أولاهما المدرسة القديمة التي قبضت على ما تركه العرب من آثار وأفكار فالتزمت بصيغتها وأساليبها وأبت ان تحيد عنها ، وثانيتهما المدرسة الحديثة التي تلقحت بنتاج الفكر الغربي فغدت تحاول محاكاته وترسم خطاه ونقل طرف من فيضه الى لغة الضاد .

وسرعان ما تأثر حملة الأقلام في العراق ، وهم قلة ضئيلة في تلك الأيام ، بهاتين المدرستين فراحوا ينسجون على منوالهما ، بل ويقلدونهما في كل شيء، حتى جاء زمن كان فيه التفكير والاسلوب المصريان هما الغالبين على الحياة الأدبية في العراق ، وكان فيه كل اديب عراقي تقريباً وقد اتخذ له مثالاً احد اعلام تينك المدرستين يحتذيه في اسلوبه ، ويحاكيه في حذلقته ومقاله .

والذي اعتقده ان مرد ذلك التقليد يعود بالدرجة الأولى الى قلة الملمين باللغات العالمية الكبرى من الأدباء العراقيين آنذاك ، وعدم استطاعتهم النقل عنها الى العربية ، الى درجة ان المرحوم الأستاذ عبدالمسيح وزير — وهو لبناني المولد والنشأة ظل الى ما بعد سنة ١٩٣٠ الوحيد بين أدباء العراق ممن يتقنون الانكليزية وينقلون عنها بكثرة .

وقد دخل الأدب العراقي مرحلة جديدة لدى ظهور الواقعية « الريالزم » فيه ببروز طبقة جديدة من أدباء الشباب تفتحت ابصارهم ليس فحسب الى ما يبدعه الفكر الغربي من علوم وفنون ، وما يدين به من عقائد وافكار ، وانما الى واقع الحياة العراقية وما يعج به المجتمع العراقي من تناقضات ، ويصطرع بين طبقاته المتخاصمة من رغبات .

لقد شرع اولئك الأدباء لأول مرة في العراق يغوصون في اعماق مجتمعهم فيدرسون ادواءه ويردونها الى اصولها الحقيقية التي نجمت عنها .

لقد شرعوا يعنون بحالة الفلاح وما يلقاه على يد الاقطاع المخيم بكلكله على العراق من مختلف الوان الشقاء ، وضروب السلب والأستغلال . أجل هذا البائس الذي يعيش مع البهائم يشاركها مأكلها ومأواها ، يفني زهرة حياته في التعاسة والحرمان في حين يتدفق ما تنتجه يداه ذهباً خالصاً الى جيوب طائفة ضئيلة تتفنن في اساليب الاسراف والانفاق ، وتبتدع صنوف الملذات والشهوات .

وبدأوا يعكفون ايضاً على دراسة اوضاع العامل هو الآخر فيصفون قسوة العمل الذي يكدح فيه ليل نهار وتفاهة الأجر الذي يعود عليه من وراء كدحه المضني ذاك، وضخامة الارباح التي تتكدس في خزائن ارباب العمل ، ثم يرسمون بعد ذلك خطط الاصلاح العام الذي ينبغي ان يقوم على أسس اقتصادية بحتة تهيء للكادحين الاستفادة من ثمرات جهودهم ، واحلالهم المنزلة اللائقة بهم باعتبارهم الطبقة المنتجة التي تقوم على سواعدها اركان المجتمع وقواعده المتينة .

وقد تمثل هذا الاتجاه الواقعي في كثير من ضروب الانتاج الفكري فكان هناك بعض من اخذوا يعالجون كتابة الأقصوصة الواقعية، وآخرون ممن يكتبون البحوث الاجتماعية والاقتصادية على أساس التحليل الواقعي .

وحتى الشعر لم يعدم بدوره فيضاً من الواقعية اذ اخـــذ يعرض صوراً حية ناطقة عن حياة العامل والفـــلاح وما جره الاستعمار والمتعاونون معه من الحكام ، من بلاء على البلاد .

وكان لجماعة جريدة « الأهالي » واصحـاب « الصحيفة » من قبلهم قصب السبق في الاخـــذ بالواقعية وتغليبها عـلى النتاج الفكري في العراق اذ وضع هـؤلاء نواة الادب السياسي الذي يهيمن اليوم على الحركة الثقافية الى ربوع الرافدين .

وجاءت الحرب العالمية الثانية فأحدثت من التغيير الفكري في العراق ما احدثته في غيره من الاقطار ، فلقد تفتحت عيون الشعب العراقي خـلال تلك الحرب وما بعدها فأخـــذ الوعي يتزايد بـين افراده ويفتح امامهم مجالات واسعة من المعرفـة والاطلاع ، ويدعهم يدركون مصالحهم ادراكاً تاماً ، ويميزون بين العدو والصديق ، ويفرقون بين دعي الوطنية والاخلاص وبين رائدها الحقيقي .

لقد شهد العراق في هذه المرحلة انقلاباً فكرياً واسعاً تمثل في استعداد الحركة الوطنية ، وغلبة النزعة التحررية في النتاج الفكري ، وظهور انعطاف كبير نحـــو الحركات التقدمية والافكار الانسانية ، فأخذ الشباب العراقي يلتهم بشراهة كل ما يصل الى يديه من نتاج يتحدث عن كفاح الشعوب في سبيـل خلاصها من ربقة الاستعمار ، ودك حصون الرجعية ، وفك اسار العبودية الآخذة بخناقها ، وما تتطلع نحوه من مستقبل يرفرف فيه السلام وتنعم فيه البشرية بالأمن والرخاء والمودة .

وكان من آثار هذا الانعطاف التقدمي في الفكر العراقي ، ذلـــك الفيض القيم الذي اخرجته المطبعـة العراقية في العشر السنوات الماضية – بين منقول وموضوع – من بحوث علمية ودراسات سياسية واجـــتماعية تتصل بصميم حركة الشعب في كفاحه من اجل تحطيم قواعـــد الاستعمار ، وتقويض دعائم الاستغـــلال ، وتحقيق العدالة الاجتماعيـة وتهيئة حياة حرة سعيدة للمجموع .

ومع ان الابداعية لا تزال تحتفظ حتى الآن ببعض المراكز في الحركة الثقافية في العراق ، الا ان تلك المراكز اوهن من ان تصمد امام تيار الواقعية المتعاظم .

كما لم يعدم العراق نفراً ضئيلاً جداً من بعض الساديين الذين اخذوا ينحون منحى « السريالية » في انتاجهم وتفكيرهم ، ولكن هؤلاء من القلة وخمود الذكر بحيث لا يؤبه لهم مطلقاً .

وأخيراً فقد تمـــيزت الفترة الاخيرة بغلبـة القصة والشعر السياسي على غيرهما من ضروب الانتاج الفكري ؛ ويظهر مدى غلبة النزعة الانسانية التقدمية في الادب العراقي الحديث من انه ما يكاد يظهر كتاب تقدمي حتى تتلقفـــه ايدي القراء وينفد بسرعة عجيبـة ، وان الصحف التقدمية كانت تحتل الصدارة في سعة الرواج والانتشار والاهتمام .

بغداد — **سليم طه التكريتي**

الوكيل العام لمجلة « الآداب »

ومنشورات « دار العلم للملايين »

في تونس

دار الكتب العربية الشرقية

لصاحبها السيد محمد خوجه

الكتب الادبية والمدرسية على اختلاف انواعها

احدث المطبوعات ومجلات الازياء لعام ١٩٥٣

مبيع واصلاح عموم اصناف اقلام الحبر

القرطاسية بأنواعها وادوات المكاتب

كل ذلك بمخزنه دائماً في

بيروت
شارع سوريا

مكتبة هاشم

☎ ٨٣/٢٦